بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لهذا الكتاب إخوة كبار عن أئمة الفقه الأربعة لأهل السنة، والخامس منها عن الإمام جعفر الصادق إمام الشيعة، تأخينا بها وصف الحياة التي حيوها، وشرح أصول مذاهبهم، وإظهار الجلال العلمي والهدي الإسلامي في وقائع تتكلم على ألسنة رجال من لحم ودم؛ لتتجلى الطريقتين – الموضوعية والشخصية – عظمة الإسلام، ودرجات الكمال في الرجال، وسماحة الشريعة، واتساع فقهها واقتداره على أن يصلح العالم كله في عصرنا الحاضر. فما أحراه أن يصلح به الله حال المسلمين الآن!

والمجتمع العالمي الآن يعالج حضاراته في الشرق والغرب وفي العالم الثالث، وينادي بقيم جديدة تعيذه من شرور الانحلال الخلقي والعاطفي، الفردي والأسري والاجتماعي، وحرية الشهرة، وشيوع المخدرات، وتفاقم الجرائم، والفزع الشخصي والجماعي من الدمار النووي المرتقب!

ولم تكف المستشفيات معالجة ضحايا المخدرات ولا التعليم محاربة اللذة المحرمة أو الفقر النفسي الذي ينزف ما تجمعه الحضارة المعاصرة بين أيدي البشر من آثار الإنتاج الكبير وأعراض النعمى والغضارة أو الفزع الذي ينزع الطمأنينة من أنفس الناس، فيستكثروا من الإنتاج النووي وهم عليمون أن فيه هلاكهم، فيضيفوا فزعًا إلى فزع. وتبخع الحضارة نفسها وهي في كمال إدراكها!

ونزلت بعض المجتمعات عن حرياتها لدولها فنزلت ونزلت حتى خسرت خصائص آدميتها!

ولا جرم أن المجتمع الإسلامي المعاصر يعيش في مستوى أدنى مما يؤهله له الإسلام. والإسلام قانونه الكفاح والمساواة والعدالة.

وإنما يستقعد أهله الانفصال بين العقيدة والسلوك، والانحراف عن الوسيلة الكفيلة بالتقدم، وهيل جلية لأعينهم قائمة بين أيديهم، أعلنها مالك بن أنس في مقولته الجارية على الألسن: إن هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله!

وفي هذا المعترك الفسيح للإصلاح بذل كل إمام جهده؛ ليعيد المسلمين إلى الجادة.

وفي القرنين السابع والثامن بلغ الفساد كل مبلغ، فلم يقتصر على الجمود والتقليد أو على الامتناع عن الجهاد، أو الاستهتار بالقيم الدينية، بل تجاوزها إلى الانقطاع عن التوحيد واستبدال الطقوس والبدع الذميمة أو المكفرة بالدين الصحيح.

وكان من فضل الله أن أتاح ابن تيمية للإصلاح، فخاض معركة الدفاع عن الدين ببراعة واقتدار، وخلف بمؤلفاته وسيرة حياته محجة واضحة سار عليها "ابن عبد الوهاب" وأضاف إلى فقهه القيمة العظمى التي تهب الحياة للكلمات، يوم حمل دعوة التوحيد بالحكمة والموعظة الحسنة في يد، وسيف القوة في يد، فأمكنه الله من تطبيق الشريعة. وصلح أمر الجماعة في سنوات، وتتابع على نهجه المصلحون من بعده.

* * *

ومن أجل الاعتبار بما صنعه ابن عبد الوهاب وحاجة العاصر الحالي إلى التأسي بكل كلمة قالها وكل صنيع صنعه – وضع هذا الكتاب؛ ليذكر كل ذي بصر أن صفحات هذا التاريخ العظيم تتكرر. وصدق رسول الله ﷺ: "مثل أمتي كالمطر لا يدري: أوله خير أم آخره".

كانت الإمبراطوريتان الفارسية والرومانية تمسكان كرة الأرض من الشرق والغرب من جزيرة العرب، وتملكان الزاد والعتاد، يوم أشرقت شمس الإسلام، في حين لم يكن المسلمون يملكون إلا عقيدتهم. وانتصر أصحاب العقيدة على العالم في سنوات معدودات. وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله!

وكهيئة ذلك الانتصار تمامًا – وفي المكان ذاته – تكررت دروس العقيدة على يد الإمام محمد ابن عبد الوهاب. لتظهر السماء بني الدنيا مرة إثر أخرى، على أن عقيدة التوحيد تهب الشجاعة وتحدث الانتصار؛ إذ يتواعد الرجال الصلُب على الجنة؛ ليظفروا بالشهادة أو بالنصر، وهم في الحالتين منتصرون؛ ولتظهر على مدار قرنين ونيف بعد موت الإمام – أن الذين لا تسقط أعلام الجهاد من أيديهم لا يخسرون أرواحهم؛ وإنما يهبون بها الخلود لأمتهم؛ فتغدق السماء حيث تشح السحب، وتنجب الأمة حيث تجدُب الأرض!

بهذا أصبحت المملكة العربية السعودية دولة رائدة في المجتمع العالمي، معلمة للمجتمع الإسلامي، بانتصار الشريعة على الجريمة والرذيلة والتواكل والجهل والفشل التي رخصت مواهب

غيرها من الأمم، وسيادة العدالة والطمأنينة، وانتشار الجامعات وازدهار الأخلاق الرغيبة والائتمار بالمعروف والتناهي عن المنكر.

وبهذا قامت جماعة إسلامية حقًا هي آدى للأمانة وأكد في التعامل، وأبعد من التبذل، وأصول للحرمات، تتواصل فيها الطبقات وتكدح، وتجد وتجتهد، وتثبت لعالم تتخاذل دولة، وتتحلل شعوبه – أن العذاب يحل بالأمم من أنفسها، ولا يصيب الذين ظلموا خاصة، وأن الله صادق وعده ناصر جنده، وإن غبى عن ذلك عبدة القوة أو المادة، أو عمى الآخرون عن رؤية الواقع!

* * *

والإمام محمد بن عبد الوهاب لا يقدم للعالم ولا للمسلمين نظرية فلسفية؛ وإنما يقدم أعمالاً ومنجزات. والعمل ملاك الفكر الإسلامي، وهو فكر إيجابي كله، والإيمان فيه إقرار وعمل.

والتاريخ إذ يسجل لنا منجزاته يعرضها للبشرية على الطريقة الإسلامية المعلمة: فتبدأ بداية الإسلام في الصحراء. وتستطرد في الذيوع والنماء والتمكين. مع الالتزام الدقيق بمنهج السلف الصالح، لتنشيء في جزيرة العرب دولة كبرى تزاحم بمنكب ضخم، في موكب التقدم، وتتبع أحدث أساليب التكنولوجيا، وتبهت أعداء الشريعة بنجاح مقطوع القرين. فتنفي اتهام الجاهلين للفقه الإسلامي بالتخلف عن سداد حاجات المسلمين في القرون الحديثة. وتُعلم الجميع أن الوسيلة (الوحيدة) للنهوض بالأمة هي تطبيق الشريعة.

وبارك الله في الأرض التي طهرتها الشريعة، فدرت ينابيعها بالعطاء، إرشادًا من السماء للناس كافة، إلى حيث يولي المسلمون وجوههم، ليعبدوا الله وحده. وليعملوا لدنياهم صادقين.

وبارك الله لابن عبد الوهاب. فلم يلق ربه إلا بعد أن شهد توحيد الجانب الشرقي من جزيرة العرب إيذانًا بوحدتها الكاملة بعده، وإن تراخى الزمان – فما الأعوام أو الحوادث في تاريخ الديانات إلا منارات، أو أحرف يكتب بها التاريخ كلماته.

والمسلمون أمة نسجبت مقومات وجودها وبقائها من قيم الإسلام.

وكل يوم يمر على الأمة – دون أن تعمل بها – يوم من أيام الضياع ينزل بها الهزائم، ويزيد الغشاوة على أبصار أبنائها كثافة، فيتشاحون على العيش الرغد أو على مجرد البقاء في الأرض وإن كان فيه الهوان.

وصدق رسول الله ﷺ: "توشك الأمم أن تداعى إليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها". فقال قائل: أمن قلة نحن يومئذ؟ قال: "بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم. وليقذفن في قلوبكم الوهن" قال قائل: يا رسول الله ما الوهن؟ قال: "حب الدنيا وكراهة الموت".

* * *

وبعد فهذا الكتاب أقسام ثلاثة في أبواب تستقرئ التاريخ، وتستشهد الوقائع، وتدل على الداء، وتقدم الطب الذي طلبه له الإمام.

الأول: يعرض – في صورة عجلى – ألفا ومائة عام من عمر أهل الإسلام، وكيف أسلمتهم الفرقة الباكرة والحكومات الجائرة وانطواء العلماء من قرن بئيس إلى قرن أبأس! وكيف نشأت البدع الصغار لتنتشر كالشرار، فتسري من بعدُ كالنار في هشيم المحتظر، فتهز أركان الجماعة فلا يبقى لها من التوحيد – وهو أصل الدين – إلا مجرد النطق بالشهادة ومن أمور العبادة إلا أشكالها. ويتعطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهو الدواء الفطري الذي أمرت به السماء، لتستعمل الفطرة في علاج الذات، فتستجيب له بالطبيعة.

والثاني: يعرض ميلاد رجل قدرته السماء؛ ليصلح ما أفسدته القرون السابقة ولتستفتح به الأمة أسباب الصمود في عصروها الحديثة مع ظهور الحضارة الغربية وسيطرتها؛ لتُعدَ المسلمين للاقتدار على التطور، بالعودة إلى أصل الدين وهو التوحيد، وإلى خصيصة الجماعة الإسلامية، وهي الائتمار بالمعروف والتناهي عن المنكر، وكيف نجح الشيخ، واتخذ المنهج السلفي عمادًا لفكره وقواعد الحرية القانونية التي يمتاز بها فقه أحمد بن حنبل وأحمد بن تيمية سنادًا لفقهه، مع سلوك مسلك الصحابة والتابعين وأئمة الفقه:

١- بتعليم المسلمين بالمجلس النبيه في (العيينة) و (الدرعية)، وبالمؤلفات الواضحة المقنعة لإدحاض البدع التي أركست المسلمين في الحضيض من قبل عصره وفي إبان عصره، وما زالت مقاومتها وسيلة لإقالة المسلمين من عثارهم في العصور التي تلته.

٢- ويحمل السيف على الذين يلحدون في الدين ويشركون بالله من عبدة الأصنام من الحجر أو الشجر أو الناس.

والثالث: يظهر الدور الذي قامت به أسلحة محمد بن سعود وبنيه في خدمة الدعوة، وبسالة الأبطال في الاستشهاد من أجل العقيدة، وانتصار المذهب السلفي والدعوة الوهابية، وانتقال الدعوة بالحروب المظفرة أو المعارك الخاسرة إلى خارج جزيرة العرب، وخارج القرن الذي ظهرت فيه، لنرى في كل بلدان الإسلام، وكل داعية للإصلاح في القرنين اللذين أعقبا موت ابن عبد الوهاب – تلميذًا له في الفكر، يدين بتعاليمه جملة وتفصيلاً.

obeikandl.com